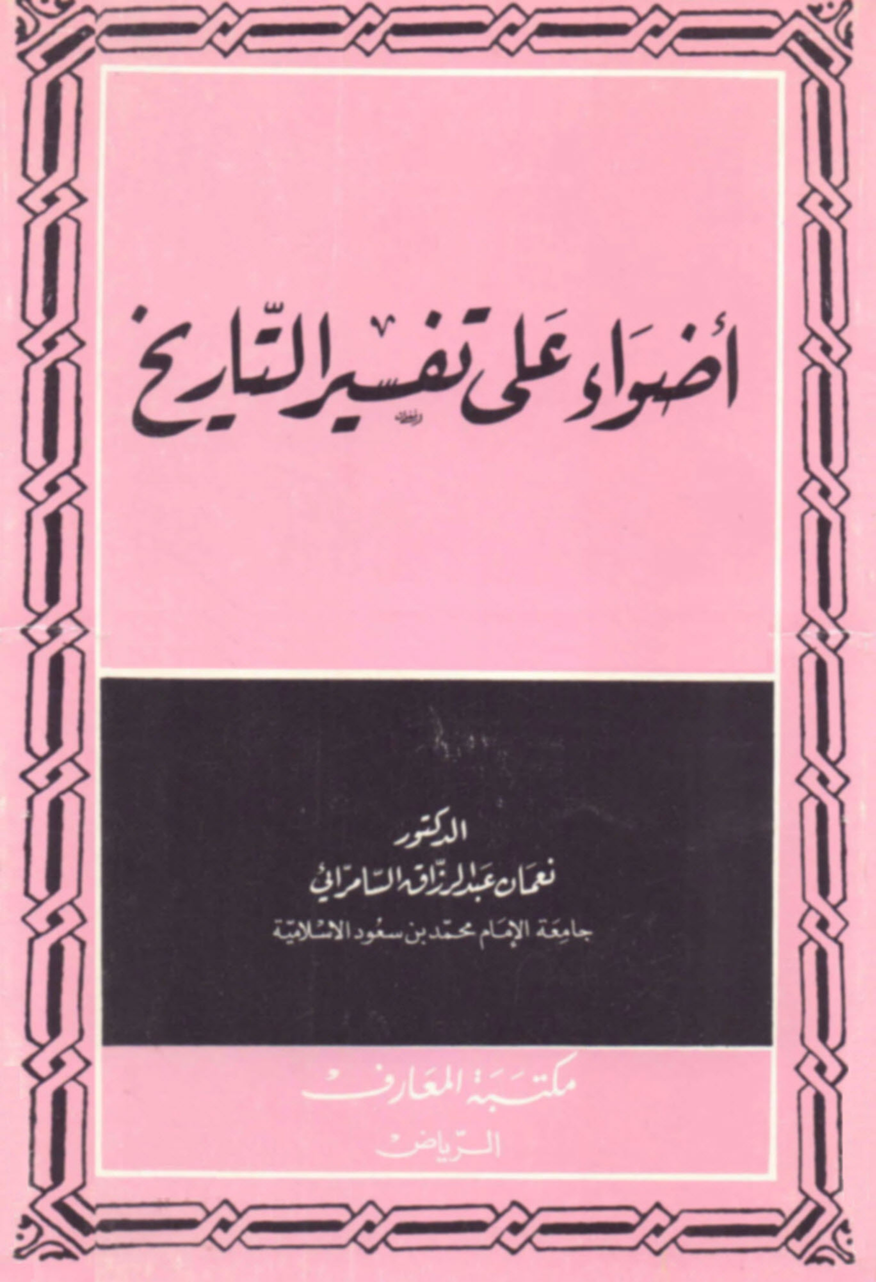


أضواء على تفسير التاريخ

الدكتور
نعمان عبد الرزاق السامرائي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مكتبة المعارف
الرياض

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

مكتبة المعارف - ص.ب: ٣٢٨١ - هاتف ٤٠١٣٧٠٨ - ٤٠٢٣٩٧٩
الرياض - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

« مقدمة »

لعل أكبر وأعظم إنجازات الانسان هو تشييده الحضارة، والصعود بها درجة بعد درجة، وتداول الأمم لها الواحدة بعد الأخرى، حتى وصلت إلى ما هي عليه في العصر الحاضر.

فكيف نشأت الحضارة وكيف تمت؟ وما هي الشروط الواجب توفرها لذلك؟ ولماذا تتوقف؟ وما هي الأسباب لجمودها وتدهورها وسقوطها؟ وكيف تصل الأمة إلى ذروة القيادة؟ وما هي أسباب تقهقرها وفقدان القيادة من يدها؟؟

كل هذه الأسئلة كانت وما زالت تشغل بال الأمم، وقد أدلى الكثير بدلوهم في هذا المجال، فهناك من يعزو كل ذلك لأسباب دينية صرفة،

وهنـاك من يعزوهـا إلى جملة أسباب متداخلة متشابكة، موزعة بين الانسان والطبيعة، ولكن من الغرابة بمكان أن يعزى كل ذلك لعامل واحد كالأرض أو العرق، أو العامل الاقتصادي أو سواه.

وهـذا «الكتيب» مساهمة في عرض بعض وجهات النظر بشيء من التركيز والاختصار، مع محاولـة لبيـان وجهـة النظر الاسلاميـة في هذا الميدان، ولما كانت هذه المادة محاضرة قد ألقيت على طلبة الدراسات العليا في جامعة الإمام محمد بن سعود، لذا فقد أبقيت عليها كما هي آملاً العودة للموضوع مرة أخرى بإذن الله، والله الموفق والمعين.

نعمان عبدالرزاق السامرائي

بسم الله الرحمن الرحيم

أضواء[*] على تفسير التاريخ

إن اهتمام الإنسان بالتاريخ قديم، حتى الكتب السماوية أفردت مكاناً واسعاً له، فالقرآن الكريم يفرد «ثلثه» تقريباً للحديث عن تاريخ الأمم السابقة، وما حدث لها.

أما التوراة فيمكن وصفها بأنها تؤرخ للشعب اليهودي والشعوب المجاورة، وهذا الحيز يزيد كثيراً على النصف.

فالعناية بالتاريخ قديمة، ولكن الجديد هو الاهتمام بتفسير التاريخ، وقد شرَّق الباحثون وغرَّبوا في التفسير، فمنهم من حاول جاهداً أن يفسر التاريخ بعامل واحد، بينما يذهب البعض إلى اعتماد جملة عوامل.

من هنا يمكن أن نعد من الصنف الأول[1] (فمن ألوان هذا الاتجاه إلى توحيد القوة المحركة للتاريخ في عامل واحد الرأي القائل: بالجنس كسبب أعلى في المضمار الاجتماعي فهو يؤكد أن الحضارات البشرية، والمدنية الإجتماعية تختلف بمقدار الثروة المذخورة في صميم الجنس (العرق). وما ينطوي عليه من قوى الدفع والتحريك، وطاقات الابداع والبناء، فالجنس القوي النقي المحض، هو مبعث كل مظاهر الحياة في المجتمعات الإنسانية منذ الأزل إلى العصر الحديث، وقُوام التركيب العضوي والنفسي في الإنسان، وليس التاريخ إلا سلسلة مترابطة من ظواهر الكفاح بين الأجناس والدماء التي تخوض معركة الحياة في سبيل البقاء، فيكتب فيها النصر للدم القوي، وتموت في خضمه الشعوب الصغيرة وتضمحل وتذوب بسبب ما تفقده من طاقات في جنسها وما تخسره من قابلية المقاومة النابعة من نقاء الدم «والنازية هي أكبر من تعلق

---

(١) «اقتصادنا» للمرحوم الصدر (١٩/١) طبعة عام ١٣٩٨هـ.

بهذه الأوهام، والفيلسوف المتغطرس نيتشة، هو أشهر من نادىٰ بذلك».

ومن تفسيرات التاريخ بعامل واحد: المفهوم الجغرافي للتاريخ الذي يعتبر العامل الجغرافي والطبيعي أساساً لتاريخ الأمم والشعوب، فيختلف تاريخ الناس باختلاف ما يكتنفهم من العوامل الجغرافية والطبيعية لأنها هي التي تشق لهم طريق الحضارة الراقية، وتوفر لهم أسباب المدنية، وتفجر في عقولهم الأفكار البناءة أحياناً، وتوصد في وجوههم الأبواب، وتفرض عليهم السير في مؤخر القافلة البشرية فالعامل الجغرافي هو الذي يكيف المجتمعات بما يتفق مع طبيعته ومتطلباته.

وهناك تفسير ثالث بالعامل الواحد، نادى به بعض علماء النفس قائلاً: إن الغريزة الجنسية هي السر الحقيقي الكامن وراء مختلف النشاطات الإنسانية التي يتألف منها التاريخ والمجتمع، فليست حياة الإنسان إلا سلسلة من الاندفاعات الشعورية أو اللاشعورية عن تلك الغريزة....

وكل هذه المحاولات لا تتفق مع الواقع ولا يقرها الإسلام، لأن كل واحد منها قد حاول أن يستوعب بعامل واحد، تفسير الحياة الإنسانية كلها، وأن يهب هذا العامل من أدوار التاريخ، وفضول المجتمع ما ليس جديراً به لدى الحساب الشامل الدقيق).

نضيف لما تقدم التفسير المادي للتاريخ، والذي ذكره المرحوم الصدر منفصلاً فيكون مجموع العوامل أربعة.

وقد زاد الدكتور عمادالدين خليل تفسيرين آخرين أحدهما لهيغل[1].. والآخر لتوينبي[2]، سوف نبسطهما مع التفسير المادي- والديني إن شاء الله- .

أولاً: التفسير الديني:

هناك من ينكر أثر الدين في الحضارات، بل

---

(١) التفسير الإسلامي ص ٢٣.

(٢) المرجع السابق ص ٧٠.

يجعله من مفرزات وسائل الانتاج، وهناك من يرى في الدين مجرد علاقة بين العبد وربه، لا يمكن أن يسهم في البناء الحضاري، فكيف بتفسير التاريخ، لكن هناك من يرى أن الدين يمكن أن يكون عامل تفسير للتاريخ ويمكن أن نذكر من هؤلاء الناقد الانجليزي كولن ويلسون صاحب كتاب اللامنتمي وسقوط الحضارة فهو يقول مثلا[1]: (لقد كان اللامنتمي محاولة بحث مسألة «إن الإنسان ليس كاملاً بدون دين» فإذا أرادت الحياة، كما يشير وليم جيمس في «أنواع التجارب الدينية» أن تتقدم خطوات أخرى أسمى من الفرد، من الإنسان العادي، وحتى من الفنان، فلن يكون ذلك إلا من طريق تطهير قوة الفهم. وهذا الشوق لتركيز أعظم في الخيال يتمثل في الشهية الدينية... إن الدين هو مقياس البطولة، ورمز حاجة الإنسان في الكفاح من أجل الفهم، وفشل الدين والحروب العالمية أمران متلازمان حتماً).

---

(١) سقوط الحضارة ص ٣٩٥.

ويقول بعد ذلك بصفحات[1]: (أعتقد أن أية حضارة تصل لحظة أزمتها يوماً ما- وإن الحضارة الغربية قد بلغت هذه اللحظة الآن- وأعتقد أن هذه الأزمة تهدد بالدمار أو بالسمو الى أشكال أعلى. والمعروف حتى الآن أنه لم تواجه أية حضارة هذا التحدي إلا وكانت تفشل بمواجهته. والتاريخ هو دراسة للهياكل العظمية التي خلفتها الحضارات الفاشلة....

وقد حاولت أن أبين لماذا بلغ العالم الغربي لحظة أزمته. كما حاولت أن أبين كيف أن الدين **(العمود الفقري للحضارة)** قد تيبس في كنيسة، لم يعد يقبل بها اللامنتمون... ونجد في حالتنا أن التقدم العلمي، الذي ساعدنا كثيراً على دحر صعوبات الحضارة قد سلب منا الدافع الروحي، الأمر الذي زاد في عصيان اللامنتمي: فهو عاص ضد الكنيسة المعترف بها، وعاص ضد معبد المادية اللامعترف به،

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩٧.
(٢) سقوط الحضارة ص ١٦٥.

ومع ذلك فإن اللامنتمي هو الوريث الحقيقي للأنبياء...).

يتحدث ولسن عن الحضارة الصحيحة والمريضة، فيرى أن الأولى تؤمن بدين- أي دين- بينما لا يكون للثانية أي دين: (... فإن الحضارة الصحيحة المتماسكة تؤمن بكلاسيكيتها وبدينها، ولا يكون فيها لامنتمون.

أما في الحضارة المريضة، الحضارة الرومانسية، فإن على اللامنتمي أن يعيد بناء اتجاهه الكلاسيكي الديني، ليحصل على شيء من تلك الصحة المفقودة، وإذا كانت الحضارة كلُها تشعر بالحاجة إلى فترة أخرى من الحياة فعليها أن تفعل ما يفعله اللامنتمي).

ننتقل بعد هذا الى الفيلسوف برنارد شو الذي ينقل عنه ولسن قوله[1]: (كنت أعرف دائما أن الحضارة تحتاج الى دين، وأن حياتها أو موتها يتوقفان على ذلك، إذن فالحضارة تسقط إذا فقدت

(١) سقوط الحضارة ص ٣٤١.

دينها ، وتنتعش إذا هي تمسكت به).

ويوضح هذه الفكرة فيقول:[1] (إن الحضارات تسقط في اللحظة التي تكون فيها قوة الإنسان أشد من قوة الدين).

أي أن الإنسان قد أفلت من الخضوع لأوامر الدين ، وأحل أوامره بديلا عنه ، حتى ظهر وكأنه أقوى من الدين. وبكلمة واحدة ، طرح الدين جانبا وراح يفعل ما يريد.

إن الدين يشكل ضوابط اجتماعية. فمتى تجاوزه الإنسان، فلا مفر من أن يضع بديلا عن تلك الضوابط ، ثم لا يلبث أنه يشعر بعدم وفائها بحاجته فلا يلبث أن يغيرها ويبدلها ، وهكذا يظل يسقط ويقوم حتى يكل ويتعب، ويحطم ما بنى من حضارة.

أما توينبي فيتصور أن العالم قام بصفقة مقايضة بين مثله الروحية القديمة وما أنتجته الحضارة

---

(١) سقوط الحضارة ص ٣٤٢.

فيقول[1]: (لقـد أغرت فنون الصناعـة ضحايـا وجعلتهم يسلّمونها قيـاد أنفسهم ببيعها المصابيح الجديـدة لهم مقابل المصابيح القديمة لقد أغوتهم فباعوهـا أرواحهم وأخـذوا بـدلا منها «السينما والراديـو» وكانت نتيجة هذا الدمار الحضاري الذي سببته تلك الصفقة الجديدة، اقفراراً روحيا وصفه افلاطون بأنه: «مجتمع الخنازير»).

ثم يقول بعد ذلك ولسن بأن توينبي يعتقد بأن خلاص الغرب لا يتحقق إلا بالانتقال من الاقتصاد الى الدين[2]. أما التوراة فترد كل حادثة ومصاب الى الدين.

وفي الختام لا يسع الباحث أن يتجاهل ابن خلـدون في هذا الميدان فهو يرى[3] أن الملك يحصل بالغلبة، والغلبة تكون بالعصبية واجتماع الكلمة وهذا مما يوفره الدين، كما أن أهل الباطل يحصل

---

(١) سقوط الحضارة ص ١٦٤.
(٢) سقوط الحضارة ص ١٦٥.
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢٧٧.

بينهم الخلاف وحب الدنيا فيغلبون.[1] (والسبب في ذلك كما قدمناه أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد، الذي في أهل العصبية، وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الإستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء، لأن الوجهة واحدة، والمطلوب متساوٍ عندهم وهم مستميتون عليه، وأهل الدولة التي هم طالبوها وإن كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل، وتخاذلهم لتقية الموت حاصل (أي اتقاء الموت) فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم، بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الغناء بما فيهم من الترف والذل...).

ثانياً: التفسير المثالي لهيغل:[1]

يرى هيغل أن كل فترة أساسية في تاريخ

---

(١) فلسفتنا للمرحوم الصدر ص ٢٢١، وتفسير التاريخ لصديقي ص ٦١، والمسألة الاجتماعية للأستاذ عمر عودة الخطيب ص ١٣٣، والتفسير الإسلامي ص ٢٣. ونقض اوهام المادية الجدلية للدكتور سعيد رمضان البوطي ص ١٨.

الحضارة تمثل وحدة مستقلة، وأن ملامحها السياسية، والاقتصادية، والأخلاقية، والإجتماعية، والعقلية والدينية والفنية، كلها جوانب للمجموع الحي، ومنها جميعاً يتكون كيان متجانس.

وأن كل فترة أساسية تنمي فكرتها الرئيسة الى الحد الأقصى، ثم تولد ضدها أو نقيضها، ويبقى الصراع حتى تتحد المتناقضات في وحدة عُليا هي (الموحد أو الجامع)، وهذا يحمل التناقض، فلا يلبث أن ينشب صراع جديد ليتولد «موحد» آخر يحمل الفرضية ونقيضها، وهكذا يستمر الحال حتى تصل الفكرة أخيرا الى «المطلق» الذي يكون خالياً من التناقض.

إن جوهر التطور لدى هيغل هو نتيجة صراع المتناقضات، حيث كل ظاهرة تحتوي تناقضاً داخلياً يدفعها الى الامام، ثم تتحطم آخر الامر لتتحول الى شيء جديد ما يلبث، وهو يحمل المتناقضات أن يتحطم مكوناً موحداً جديداً وهكذا...

وقد صاغ هيغل فلسفته بأسلوب صعب معقد، يحتمل عدة تفاسير، ومن هنا جرى الاختلاف في تفسير فلسفته، حتى وصلت التضارب والتضاد. ومن المعلوم أنه هو الذي قدم للماديين «الجدلية» فأخذوها عنه، وبدلا من شكره لا زالوا يشتمونه.

ونظراً لصعوبة هذه الفلسفة، فسوف أعمل على توضيحها بالأمثلة التالية:

مثال من التاريخ: يقول هيغل:

١) ظهر المذهب الأبيقوري- وهو مذهب فلسفي يوناني- يرى أن الخير في اللذة، وانتهى الى المنفعة (هذه فكرة).

٢) ظهر بعده المذهب الرواقي- وهو مذهب فلسفي يوناني أيضاً- يرى أن الخير في سيطرة العقل على الشهوة، وانتهى الى التقشف (وهذه فكرة مناقضة للاولى).

٣) ظهرت بعد ذلك المسيحية- وهي في نظر هيغل- وسط بين الحالين.

مثال آخر:

إن المدينة تتقدم بفعل ورد فعل، بين النزعات المتضادة، فعصور السلطة المطلقة تتبعها عصور فوضى، ومن إتحاد الاثنين تنشأ مرحلة سامية من الحرية الدستورية.

مثال ثالث:

يرى هيغل أن الإنسان يمثل الشيء النهائي، بينما يمثل الله اللانهائي وقد جاءت النصرانية- ذلك السر العجيب- الذي يلائم بين النهائي واللانهائي، بين الإنسان وخالقه، ولقد تم التوفيق بين الضدين في شخص السيد المسيح، على اعتباره «إنسان إلهي»- كما يزعم هيغل- اتحدت فيه الطبيعة الإلهية بالطبيعة البشرية... ويدعي هيغل أن في الكون إرادة تخطط وأن «الصيرورة» ليست متروكة للصدفة، ولا للأسباب العارضة وأن هدف الصراع والتوفيق «الجدلية» هو تطوير روح

العالم التي تتجه دائماً نحو غايتها، وهي «تحقيق الذات» فهو يقول[1]: (إننا نستنتج مجرد إستنتاج من تاريخ العالم، أن تطوره كان دائما صيرورة عقلية وحركة فكرية متقدمة نحو الأعلى، وأن هذا التاريخ قد أنشأ الطريق المنطقي الضروري لروح العالم، تلك الروح التي طبيعتها دائماً واحدة لا تتغير، والتي تعرض هذه الطبيعة في ظواهر وجود العالم...

فإن تفسير التاريخ هو بيان لعواطف البشر وعبقرياتهم وقواهم الفعالة التي تقوم بدورها على مسرح العالم الكبير، وإن الصيرورة التي تقررها المشيئة السامية المهيمنة، والتي تعرضها تلك العواطف والعبقريات والقوى الفعالة، هذه الصيرورة تكون ما يسمى بصورة عامة بخطة المشيئة العليا).

---

(١) التفسير الإسلامي ص ٢٥.

« النقد[1] »

سبق أن قلنا بأن هيغل قد صاغ فلسفته بأسلوب صعب حمّال لجملة تفاسير ويمكن أن يوجه له النقد التالي:

١ - إن الصراع بين الميول والإتجاهات المتضاربة حقيقة، وإن أي نظام.. اجتماعي يحقق أغراضه، ويستوفي مبررات وجوده لا يلبث أن ينحل، ويتولد عنه قوى جديدة، لا تلبث أن تهدمه، لتقيم نظاماً جديداً على أنقاضه، هذا أمر مسلَّم، ولكن هيغل ومن بعده «أيتامه» من الماديين توسعوا في ذلك أكثر مما ينبغي ويحتمل[2].

والملاحظ أن هيغل لا يفرق بين النقيض والمتميز، فالنقيضان - كما يقول المناطقة - لا يجتمعا معاً ولا يرتفعان معاً، وعند هيغل

---

(١) فلسفتنا ص ٢٢١.

(٢) التفسير الإسلامي ص ٣٣.

يجتمعان في (الموحد) الذي يكون نواة لتناقض جديد.. فهو بهذا يخلط بين المتميز والنقيض.

٢ - إن الحدود الفاصلة بين الفرضية ونقيضها غير واضحة ولا محدودة، بل تبدو مرتبطة ارتباطاً وثيقاً، والفصل بينهما صعب جداً، خاصةً في الحركات التي ليست لها صفة ثبات، ولا يوجد خط فاصل واضح بينهما.

٣ - إذا قلنا بأن النقيض يتولد من باطن الفرضية نفسها، فهذا يؤدي الى الإعتقاد بأن النقيض ضد الفرضية من كل ناحية، ومعنى ذلك عدم وجود شيء مشترك بين النقيضين، فكيف إذن تذوب الفرضية في خصيمها ؟؟ إن الإمتزاج بينهما وخلق « الموحد » لا يكون ممكناً إلا حين يكون هناك شبه بينهما، فإذا وجد هذا الشبه، فهذا يعني أنهما ليسا ضدين لأن النقيضين ينبغي أن يكونا مختلفين من كل وجه.

٤ - إن فكرة الصراع لدى هيغل لا تقوم بها إرادة

الأفراد، فهم ليس لهم إلا معلومات بسيطة جداً عن دورهم، وعما يقومون به فعلاً، إذ أنهم مجرد أدوات وليسوا سادة الصيرورة التاريخية، فهي لا شعورية بالنسبة للأفراد. فاذا كانت حوادث العالم ليست وليدة الإرادة فكيف إذن صارت؟؟.

إن هيغل ليس لديه جواب واضح على ذلك.

٥ - يعتقد هيغل- ويتابعه الماركسيون- بأن كل عهد يأتي يكون أرقى ممن سبقه، لأن الفرضية ونقيضها وموحدهما هي من أشكال التطور، وأن (الموحد) الذي هو نتيجة التوفيق بين العناصر الصحيحة الفعالة (من الفرضية ونقيضها) يجب أن يكون خطوة واسعة للإمام[١].

وهكذا بالنسبة للحضارة، فالتالية يجب أن تكون أرقى من سابقتها، بل إن أوجه

---

(١) من هنا يُطلق الشيوعيون على أنفسهم وصف التقدمية، وعلى غيرهم وصف الرجعية.

الحضارة المختلفة في رقيٍ دائم لا سبيل الى مقاومته. ولكن التاريخ يشهد بغير ذلك، فقد تقدمنا في الحضارة وتأخرنا في المدنية، تقدمنا علمياً وصناعياً، وتأخرنا روحياً وخُلقياً، اللهم إلا اذا قلنا بأن استعمال القنابل الذرية، والغازات السامة، أرحم بالإنسان من استعمال النبال، والتراشق بالمنجنيق.

ومع ذلك فهذا توينبي يقول:[1] (لقد ارتقى علمنا فبلغ درجة لم يسبق له أن بلغها، ومع ذلك فقد انتكسنا في نفس الوقت في الحروب الطبقية والقومية، والعنصرية إلى أعماق، قد لا يكون سمع بها أحد قبلنا، وهذه المشاعر السيئة تجد لها متنفسا في أعماق القسوة الغليظة المصممة علمياً).

٦ - يعتقد هيغل أن صيرورة الزمن تتجه من الأدنى إلى الأكثر كمالاً، وأن «روح العالم» تتجه نحو تحقيق الكمال، وإن كانت لم تبلغ

---

(١) التفسير الإسلامي ص ٣٤.

هدفها بعد، ثم هو يقول بأن دولة (بروسيا) قد بلغت حد الكمال، بحيث لم تكن أية ثورة تالية بمقدورها أن تأتي بغير المصائب»...

ولكن الواقع جاء بغير ذلك، فذهبت بروسيا، وقامت ألمانيا لتشترك بحربين عالميتين، تخرج منهما مهزومة مغلوبة.

٧- يدعي هيغل بأن كل ما كان معقولاً فهو حقيقي، وكل ما كان حقيقياً فهو معقول. والسؤال: ما هو المقياس والضابط للمعقول من عدمه؟؟

وكيف يمكن أن نقرر بأن نظاما للحكم مثلاً بأنه معقول أو غير معقول؟؟

ربما كان النصر في الحرب هو الوسيلة، من هنا وصف بعض النقاد هيغل بأنه (فيلسوف مجلس الحكم السري، وحكم طبقة الإداريين للدولة). أما اليساريون من أتباع هيغل ففسروا أفكاره هذه بحيث تساندهم في صراعهم ضد الملكية والدين، بحجة أنها مخالفة للمعقول، لذا يجب

أن تزول. ومثل هذه التفسيرات كثيرة ومتنوعة، سببها أحياناً الصياغة الغامضة وعدم وضوح القصد.

٨- يعتقد هيغل بأن الدولة تعتبر تجسيدا «للكل» فهي الحقيقة الصادقة، وفيها وحدها توجد الفكرة الإلهية. وأن الفرد إذا أراد أن يحقق وجوده فلن يستطيع ذلك إلا كعضو من أعضاء الدولة.

ولكنه- وهو صاحب فكرة روح العالم- كان الأجدر به أن يأخذ العالم ككل، والدولة بمثابة قسم فقط، لأن هذا ينسجم مع أفكاره، فالبشر جميعاً ممثلون يؤدون أدوارهم في كل مكان، وفقاً «لروح العالم».

إن هذا التعظيم للدولة جعل الناس يوالونها ويناصرونها، سواء أكانت عادلة أو ظالمة، كما ولّدت اتجاهات خطرة ظهرت في الفاشية الإيطالية والنازية الألمانية. حتى ليرى فيلسوف القوة المتغطرس (نيتشه) أن الرجال

لا يليق بهم غير التدريب والحرب والقتال، كما لا يليق بالنساء غير الترفية عن المقاتلين، وما سوى ذلك فسخف.

وهكذا جعل هيغل من الدولة العقل المطلق، الذي لا يعترف بأية سلطة سوى سلطته... ولو عاش هيغل حتى يرى «هتلر وموسليني» لرأى دولا هي أشبه بعصابات القتل والتدمير.

ثالثاً: التفسير الماركسي:

إن التفسير الديالكتيكي للتاريخ لم يوجده (ماركس) من العدم، ولا إبتدعه ابتداعاً، بل أخذه عمن سبقوه.

يبدأ ماركس في كتابه «رأس المال» بهذا السؤال[1]: ما هو المبدأ الذي يحكم كل العلاقات بين البشر؟؟ ويرد عليه: بأنه الهدف المشترك الذي يسعى كل الناس لبلوغه، وهو إنتاج الوسائل التي

---

(١) التفسير الإسلامي ص ٤١.

يمدون بها حياتهم، وبعد الانتاج يكون تبادل ما أنتجوا، فعلى الإنسان أولا أن يعيش ليستطيع أن يفكر. ثم يصل بعد هذا الى نتيجة اعتبرها فتح الفتوح: (لذا فإن الأمر النهائي الذي يقرر التغير الإجتماعي يمكن أن يوجد فيما يحصل من تغيير في أسلوب الإنتاج والتبادل، وليس في أفكار الإنسان أو أي شيء آخر).

هذا وقد طرحت الماركسية الفروض الآتية[1]:

١ - في غمرة الإنتاج الإقتصادي يدخل الناس في علاقات معينة ويضطرون - دون إرادتهم - إلى تكوين ظروف معينة. وهذه الظروف في الإنتاج تتفق مع مرحلة معينة من تطور القوى المادية.

٢ - إن ظروف الإنتاج ككل تكون الكيان الإقتصادي للمجتمع، وهذه هي القاعدة المادية التي تقام عليها سائر القوانين.

---

(١) التفسير الإسلامي ٤٤.

٣- إنَّ الحياة الإقتصادية والاجتماعية، هي التي تعيّن وعي الإنسان، وليس العكس.

٤- بعد بلوغ قوى الإنتاج مرحلة معينة من التطور تصطدم مع ظروف الإنتاج الموجودة أي (مع نظام الإنتاج القائم).

٥- إن تاريخ المجتمع الإنساني، منذ وجوده حتى الآن، هو عبارة عن تاريخ صراع للطبقات، حيث كانت تقف موقف المعارضة الدائمة لبعضها، وتشن حربا لا انقطاع لها، تختفي حيناً لتظهر حيناً آخر.
هذه الحرب تنتهي عادة إما بإعادة بناء المجتمع كلياً، أو بتدمير الطبقات المتصارعة جميعاً...

وهكذا نرى المجتمع الإنساني ابتدأ بالشيوعية البدائية، أو الجماعية، لينتقل الى نظام الطبقات قديماً (سادةً وعبيد) وبعده (سادة الإقطاع وعبيد الأرض) ثم الى رأسماليين وعمال في العصر الحديث، ويتجه التطور بفعل القوانين... المتحكمة فيه الى

نظام جديد يخلو من الطبقات والمصالح الإقتصادية المتضاربة.

وقبل الختام نقتبس بعض العبارات لماركس توضح مذهبه[1]: (... فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية بعين الصفة العامة للعمليات الإجتماعية والسياسية والروحية في الحياة (أي الدين)... وليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم، بل إن وجودهم هو الذي يعين شعورهم (أي إن المادة هي الأصل).

ولا يزول أي نظام اجتماعي أبداً قبل أن تنمو كافة القوى الإنتاجية التي يكون لها فيه مجال النمو...).

فهل تحقق ذلك في عدن والحبشة، وانكولا، وموزنبيق، قبل غيرها من الدول؟ ومن رسالة لماركس نقتبس ما يلي[2]: (ما المجتمع أياً كان

---

(١) التفسير الإسلامي ص ٤٦.
(٢) التفسير الإسلامي ص ٤٧.

شكله؟ إنه وليد النشاط المتبادل الذي يقوم به الناس. وهل لهم حرية إختيار هذا لشكل أو ذاك من المجتمع لأنفسهم؟ لا بكل تأكيد، إذا فرضت وجود حال معينة من التطور في القوى الإنتاجية، كان لديك شكل معين من أشكال التجارة والإستهلاك، يطابقه نظام إجتماعي، وتنظيم للأسرة والطبقات. جبرية عمياء، الإنسان فيها مسلوب الإرادة والإختيار، ووسائل الإنتاج «متأله» جديد جبار يفعل كل شيء ولا راد لحكمه.

«النقد[1]»

١ - ظهر ماركس في وقت صار النظر فيه الى الثروة المادية وامتلاكها هو هدف الحياة الوحيد، حتى عم الإستعمار والإستغلال كافة الأقطار،

(١) اقتصادنا للصدر ٢١/١، وتفسير التاريخ لصديقي ص ٨٧، والمسألة الاجتماعية للاستاذ عمر عودة ص ١٥٤، والعدالة الاجتماعية لفؤاد العادل ص ٦٨، والتفسير الإسلامي ص ٤٩، ونقضى أوهام المادية الجدلية للدكتور سعيد رمضان البوطي ص ٧٥.

واندلعت الحروب من أجل السيطرة على موارد الشعوب ونهبها بكل الوسائل.

لذا لا غرابة أن يقوم رجل ليجعل من وسائل الإنتاج «فرعونا» يتحكم بالبشر، ويتصرف بمقدراتهم. وإذا رفض تلاميذ ماركس هذا أحلناهم على معلمهم الذي يقول بأن الأفكار هي إنعكاس للواقع الموضوعي على دماغ الإنسان، فأسلوب الإنتاج يحدد النظام السياسي والإجتماعي والديني والأسرى للإنسان، وليس له الحرية في الخروج على ذلك... وهذا الكلام لا يحتاج الى شرح.

٢- يرى ماركس أن الإنسان يستجيب للتغيرات التي تحدث لنظام الإنتاج، ولكنه لا يوضح كيف يتم ذلك، وهو يتغافل متعمداً عن قضايا واضحة التأثير، مثل التماسك الإجتماعي والاخلاص للعائلة والمهنة، والأمة أو التطلع للسمو والرفعة، كل هذا يهمله.

واذا سألنا ما دام هدف الإنسان هو المادة والرفاه، فلماذا لا يحقق ذلك عن طريق التجسس

مثلاً أو الدعارة أو السرقة والرشوة؟؟

فكل هذه توفره المادة والرفاه سريعاً دون جهدٍ كبير. لماذا يموت الإنسان دفاعاً عن شرفه أو بلده أو أمته؟ وأحياناً عن شرف غيره وحياته؟؟

٣- نحن نتساءل: ما هي وسائل الإنتاج؟ وكيف تأتي الى هذا الوجود؟ وهل هي حقاً العوامل الأصلية في تطور الإنسان؟

(إن[١] قوى الإنتاج هي القوى التي يستخدمها الإنسان في الإنتاج الإقتصادي، من صفات الخصب في التربة، والخواص التي تتميز بها المعادن، والقوى الآلية والكيماوية في الطبيعة، وحرارة الشمس وقوة البخار، والكهرباء، وكذلك قوى الحيوانات والإنسان).

والملاحظ:

أ- أنها قديمة.

ب- مع توفر وجودها فقد مضى على الإنسان قرون حتى كشفها ثم سخرها لنفسه.

(١) تفسير التاريخ لصديقي

جـ- إن ذكاء الإنسان هو العامل الحاسم في هذا، فقد بقيت قرونا لا يستفيد منها أحد، حتى استغلها الإنسان بعد كشفها..

د- لولا ذكاء الإنسان إذن لاستطاعت الشعوب البدائية مثلا إقامة حضارات عريقة، لأن هذه المواد كانت بين يديها وفي متناولها. فهل عملت وسائل الإنتاج ذلك، أم هو من فعل الإنسان وبحثه؟. إن البخار مثلا وجُد منذ وجد الماء والحرارة، فلماذا تأخر استخدامه كل هذه القرون؟؟.

٤- إذا كان أسلوب الإنتاج هو العامل الحاسم في حياة الإنسان، إذن يجب أن يتصرف الأشخاص أو المجتمعات التي تواجه مشاكل إجتماعية واحدة، وفق أسلوب واحد، وتعالج قضاياها عين المعالجة، ولكن هذا لا نجده في العالم، فهذه الدول النامية تتخبط بمشاكلها منذ سنين، وكل دولة تعالج قضاياها بشكل غير الأخرى، بل ثبت فشل بعض التجارب حين طبقت في مكانين، فالاقتصادي «شاخت» قام بتجارب من

أجل التنمية في كل من نيجيريا ، والهند ، فنجحت في مكان وفشلت في آخر. فكيف نفسر ذلك والمشاكل واحدة، ووسائل الانتاج واحدة؟.

٥- في حياة كل أمة أفراد قاموا بأدوار تاريخية نافعة أو ضارة ولو تصورنا عدم وجودهم، فهل كان بمقدور وسائل الإنتاج أن تخرج لنا نماذج أخرى تفعل الفعل نفسه؟؟!!.

لو أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يبعث في العرب، فهل كان بالإماكان جَمْعُهم في أمة واحدة ودولة واحدة؟.

لو أن ثوار « الردة » الذين ثاروا على أبي بكر كتب لهم النصر ، ودخلوا المدينة وأنهوا الخلافة. هل كان حال العرب سيكون كما كان؟؟

وأخيراً لو انتصرت المانيا وتركيا في الحرب العالمية الإولى، أو انتصر الألمان واليابان والطليان في الحرب الم لمية الثانية، فهل كان شكل العالم كما نجده اليوم؟؟.

إذاً فأين دور وسائل الإنتاج في كل هذا؟؟؟

ولماذا لم تتحالف مثلا ألمانيا مع الغرب في الحرب العالمية الثانية وظروفها الإقتصادية متشابهة ووسائل الإنتاج واحدة، بينما نجد التحالف يقع بين روسيا البلد الزراعي، وألمانيا الصناعية، ثم يتحول التحالف إلى حرب، فما دخل وسائل الإنتاج بكل ذلك؟؟

٦- يقول بروفيسور «كول» وهو من أشد الناس احتراماً لماركس[١]: «... إن من الخطر أن نؤكد على هذا (العامل الاقتصادي) الى حد مفرط في البعد، فليست الحال أن المجتمعات التي في مستوى واحد من ناحية اسلوب الإنتاج يجب أن تكون لها حتماً نفس الأنظمة، أو نفس الأشكال الإجتماعية للعائلة، والعلاقات الجماعية، والمنظمات السياسية والدينية، أو الأفكار الخاصة بالقيم والأخلاق، فلقد أظهرت بحوث علم الإنسان أشكالا حضارية مختلفة جدا، لا يمكن قط أن تفسر تفسيرا

---

(١) التفسير الإسلامي ص ٥٥.

إقتصادياً محضاً، إن أقصى ما يثبته هذا التشابه الـذي تبين لنا وجوده، إنما **هو مجرد الإقتناع بأن الأنظمة الإجتماعية تتأثر بالظروف الإقتصادية-** لا انها تتعين بها وحدها- إن الأساس الإقتصادي للمجتمع عامل واحد فقط من عوامل تصوير الشكل العام للحضارة، حتى ولو كان أهم عامل).

ويمكن أن نتساءل: هذه اليابان مثلاً لها نفس وسائل الإنتاج التي لأوروبا وأمريكا، ولكن النظام العائلي ما زال كما كان قبل التصنيع، فلماذا لم يتغير تبعاً لتغير وسائل الإنتاج؟ وقل مثل هذا عن علاقات الناس ببعضهم، فهي لم تتبدل عما كانت كثيراً. فكيف نفسر ذلك؟.

٧- عمد ماركس الى أخذ نتف من التاريخ ليستشهد بها، ويفسرها حسب نظريته، ومن ذلك: بيان مركز المرأة، فهي في القديم، ولدى القبائل الرحل التي تمارس الصيد محتقرة، لأنها لا فائدة تأتي منها، لا في الصيد ولا في القتال، ولكن حين تحولت هذه المجتمعات الى الزراعة وصارت المرأة تعمل

وتنتج اكتسبت الإحترام. يقول ماركس: وهذا دليل على صحة تأثير العامل الإقتصادي.

والسؤال الأول: هل صحيح أن المرأة كانت محتقرة لدى مجتمعات الصيد؟ وما الدليل على ذلك؟؟

والسؤال الثاني: هل كانت المرأة محتقرة في جميع المجتمعات التي تمارس الصيد، وتحترم في جميع المجتمعات الزراعية؟؟

إن الثابت غير هذا، ففي الهند كانت المرأة محترمة جداً، بينما لدى الرومان وقدماء الألمان، كانت في مركز (العبد) ليس أكثر.

ولو كان العمل يسبب الإحترام، لكان العبيد أولى من كل أحد بذلك، فهم أكثر الناس خدمة وعملاً، وأقلهم احتراماً في العالم.

بل الثابت حتى اليوم أن العمل يفرض على الضعفاء، ويسخرون أحياناً بالقوة ولم يكسبهم ذلك الإحترام.

ونحن إلى اليوم نجد مجتمعات كثيرة ما زالت تحتقر العمل اليدوي وصاحبه، وتكرم الأقوياء الذين قد يكونون من السراق وقطاع الطرق، الحقيقة التي لا يجادل فيها عاقل أن مركز المرأة لم يتحسن إلا عن طريق الأديان والحركات الإصلاحية، وفي اليابان. اليوم متى تزوجت المرأة تركت العمل ولازمت البيت، حتى لتعتبر عملها في البيت نوعاً من العبادة، هذا في مجتمع صناعي متقدم، فما رأي أيتام ماركس؟؟

٨- ترى الماركسية أن وسائل الإنتاج هي التي تصوغ الأنظمة الإجتماعية والسياسية والدينية. ولو صح هذا لوجب أن يكون في البلاد التي تتشابه بها وسائل الإنتاج، أنظمة اجتماعية وسياسية ودينية واحدة، أو على الأقل متشابهة، ولكن الواقع يقول بغير هذا، فمنذ آلاف السنين ونحن نجد الأديان المختلفة في البلد الواحد، فاليهودية، والنصرانية والبوذية والإسلام تعيش جنباً إلى جنب، بل نحن نرى أحياناً أكثر من ذلك، حين تنقسم العائلة

الواحدة فيكون لها دينان، فكيف يمكن تفسير ذلك ماركسياً؟؟

بل نحن نجد النصرانية قد تحولت- على مر الزمن- الى جملة أديان، كل فرقة تعتبر ديناً مستقلاً. وكل طائفة تكفر الأخرى، فكيف حدث ذلك، مع العلم بأن الإنقسام لا يكون على أساس البلد، بل على أساس فكري فقط؟

٩- تربط الماركسية فيما تربط- بين الأخلاق ووسائل الإنتاج، ولما كانت الأخيرة في تحسن مطرد، فهل تحسنت الأخلاق كذلك؟؟ أم هي في هبوط وصعود. والذي نشاهده كثرة الهبوط مع التحسن الكبير في وسائل الإنتاج، لأن هذه الوسائل حسّنت في معيشة الناس وزادت في رفاههم، بل أوصلتهم الى الترف الكبير، ومعلوم ما يجلبه الترف الزائد معه، من طاعون يطحن الأخلاق طحناً.

١٠- تنكر الماركسية وجود قيم ثابتة وأخلاق عامة في العالم، ذلك أن أفكار كل عصر إنما هي

نتاج مرحلة تطور اقتصادي معين ثم الوصول إليها ، وهي لا تزيد عن انعكاسات لأسلوب الإنتاج..

واذا طبقنا هذا على الماركسية نفسها ، فتكون وليدة انعكاس للعصر الذي عاشه ماركس ليس إلا ، وكل ما جاء به قد يكون ملائماً لعصره ، ومع تغير الزمن ووسائل الإنتاج ، فلا بد من ظهور فلسفة جديدة وهكذا....

ولكن أيتام ماركس يعتقدون بأنه الغى الإنجيل لينشىء إنجيلاً جديداً ، وأن ما جاء به يصلح لكل زمانٍ ومكان ، وبذلك تصبح نظراته قيماً ثابتة ، على حين جاءت الماركسية لنفي ذلك.

لقد أنكرت الماركسية جميع القيم ، وشطبت على جميع الأديان ، لتطرح نفسها بديلاً عنها ، ولتحل مكانها ، كما ظلت تهاجم الحكومات المستبدة وتعمل بكل وسيلة على هدمها ، ولكن ليس من أجل إقامة نظام متسامح ، بل من أجل دكتاتورية نفعية منافقة باسم العمال ، يكون العامل أول ضحاياها ، وآخر مستفيدٍ منها.

١١ - إن فلسفة (العمل) التي قامت عليها الماركسية ونظام الحكم الماركسي بعدها، تقوم على أساس كثرة العمال، وتكوينهم أكبر طبقة، بحيث تقيم دكتاتوريتها على أساس من ذلك، ولكن الملاحظ أن إنتشار إستعمال الآلة يقلص من عدد العمال إلى حد كبير جداً، وقد يزيد من عدد الموظفين الفنيين، كما تشهد بذلك إحصاءات الدول الصناعية مثل (ألمانيا) ففي سنة (١٩٢٥) كانت نسبة الموظفين للقوى العاملة ٢٥٪ وفي سنة (١٩٥٨) ارتفعت إلى ٢٨٪ وفي سنة ١٩٦٦ وصلت إلى ٤١٪ وما زالت في ارتفاعٍ مستمر.

وهكذا تصبح النظريات الماركسية قديمة، ترجع للقرن التاسع عشر، حين كان العمال يشكلون طبقة كبيرة، نظراً لطبيعة أدوات الإنتاج التي تطورت باتجاه تقليص اليد العاملة، لتقوم الآلة مكانها، فهي أوفر وأدق.

١٢ - تؤكد الماركسية دون ملل على أن تغير

أسلوب الإنتاج (القوى المنتجة) وتغير العلاقات، يؤدي إلى تغير النظام حتماً.

لكن الواقع يشهد بغير هذا، فالقوى المنتجة تغيرت مثلاً في كل من روسيا وأمريكا، كما تغيرت الخبرات الفنية، ولكن تغير العلاقات في روسيا اتجه من الفردية إلى الجماعة، بينما بقيت في أمريكا فردية، فلو كان للعلاقات من تأثير لجعلت النظام في الدولتين واحداً أو متشابهاً على الأقل. فهل حدث ذلك؟؟.

وهذه (ألمانيا) كانت دولة واحدة، لها أسلوب إنتاج واحد، وعلاقات واحدة، فلما خسرت الحرب واجتاحتها الجيوش «تبلشف» قسم دون قسم. ولو دخلتها الجيوش الغربية لما عرفت الشيوعية، ولو إجتاحها الروس لكانت شيوعية بكاملها.

حتى أن «ستالين» ليجهر بذلك وينسب الفضل في شيوعية إوروبا الشرقية، إلى الجيش الأحمر، وهو صادق فيما يقول، فلولاه لما انتشرت الشيوعية، ولا احتفظ بها أحد. إن العلاقات بين الناس

والنظم لا تصنعها أدوات الإنتاج، ولو فعلت لما تقاتل الكاثوليك والبروتستانت في إيرلندا، ولا المسلمون والهندوس في الهند ولا السود والبيض في جنوب افريقيا.

إن العقائد والأفكار هي التي تصنع العلاقات والنظم، فاليهودي منذ آلاف السنين ما زال يترفع عن غير اليهودي، ويعتبره دونه ويحكم بنجاسته، والهندوسي ما زال يعتبر كثيراً من الناس (أنجاساً)، إذا مرّ خيالهم على طعامه تنجس، كما لا يزال (المنبوذ) في الهند دون مستوى الإنسان. إن الأبيض في جنوب إفريقيا لا يترفع عن الأسود بتأثيرٍ وأمرٍ من وسائل الإنتاج بل من معتقداته الفاسدة، بدليل أنه متى غير عقيدته غيّر تعامله.

١٣ - الملاحظ أنه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، حصل تقدم هائل في المخترعات، ومنها وسائل الإنتاج، ربما لم يحصل مثله في قرون، فلو كان لوسائل الإنتاج هذا العمل (السحري) إذن لوجب أن تتغير هذه المجتمعات وأنظمتها عشرات

المرات، ولكن الذي تجده غير هذا. فالنظام الإشتراكي في روسيا مثلاً «تجمد» كما هو، مع أن روسيا انتقلت من مجتمع زراعي إلى صناعي، ومن دولةٍ لا تعرف شيئاً عن الذرة إلى دولة نووية، تغزو الفضاء يومياً، ومع ذلك بقي النظام والعلاقات كما هي.

ومثل ذلك أمريكا وأوروبا، فقد كانت أمريكا دولة صناعية، ولكن الكشف عن الذرة، وصناعة سفن الفضاء جاءت متأخرة، ومع ذلك بقيت الأنظمة كما هي، فأين إذن تأثير هذا التغيير الهائل؟؟

١٤ - في تفسير الماركسية للتاريخ قالت إن العالم بدأ بشيوعية بدائية قضت عليها مخترعات الإنسان، فتحول العالم إلى الرق ثم تلاه نظام الإقطاع فالرأسمالية فالإشتراكية.

ولكن الواقع يكذب هذا، فروسيا مثلا كانت أقرب للإقطاع منها للرأسمالية ولكنها قفزت للشيوعية، أما دول أوروبا الرأسمالية، وأمريكا

صاحبة الطبقة العمالية الكبيرة فلم تتحول إلى الإشتراكية- كما تنبأ ماركس- بل بقيت على رأسماليتها.

وهذه أثيوبيا، وأنكولا، والموزنبيق، هل سبقت أوروبا وأمريكا في رأسماليتها وتقدمها الصناعي، حتى تحولت للشيوعية قبلها؟ أم هي وسائل (أخرى) جاءت بالرفاق فجاؤا بالشيوعية؟

إن حكام هذه البلاد «ومثيلاتها» هم الذين يقومون بتغيير علاقات الإنتاج كما يغيرون النظم والتشريعات، ولم تفعل ذلك وسائل الإنتاج، فهي- على الأقل في هذه البلاد- من القلة، والضعف بحيث لا تساوي بندقية عسكري واحد..

١٥- يوجه إلى تقرير الماركسية بأن (العامل الإقتصادي هو العامل النهائي الأوحد في الظواهر الإجتماعية)، بأنه تقرير مبهم، وفيه الكثير من اللبس[١] لذا فقد فُسر بتفسيرات شتى.

---

(١) العدالة الإجتماعية للعادل ص ٨٣.

ففسر بأنه كافٍ بحد ذاته، وبصرف النظر عن سائر العوامل الإخرى، كما ذهب أناس ومنهم (ماركس وانكلز) في آخر حياتها، إذ تراجعا عن الإتجاه الأول، فقالا بأن العامل الإقتصادي هو العامل الرئيسي إلى جانب عوامل أخرى، لكن هي أقل أهمية.

والتفسير الأول عقيم مخالف لكل منطق وواقع.

أما التفسير الثاني فيقود إلى بطلان النظرية والتنازل عنها.

فإن قلنا بأنه العامل الوحيد الكافي، فمعنى ذلك أن مجموع الحياة الإجتماعية: من حرب وسلم وفقر، وغنى، وعبودية، وتحرر، وثورة، ورجعية كلها ناتجة عن عاملٍ واحد، أي أن الظواهر المتباينة المتعاكسة تنتج عن نفس السبب، وهذا مخالف لأبسط قواعد المنطق، إذ يقرر العقل والمنطق، قيام علاقة متجانسة بين السبب والنتيجة أما التفسير الماركسي فيقبل أن نفس السبب يمكن أن يولد أكثر النتائج تبايناً وتناقضاً، وكأنهم في هذا

يجعلون من العامل الإقتصادي « متألهاً » تصدر عنه كافة الأشياء ، وعنه تنبثق الأضداد . فإذا اعتبرناه كذلك فكأننا نقول: **بأن كل شيء يُنتج كل شيء** وهذا لا معنى له . وإذا اعتبرناه شيئاً ينتج كافة الأشياء فنكون قد أجزنا إمكان صدور الكل عن الجزء ، والشيء عن لا شيء . . .

فكيف يمكن تفسير حركة الحياة التي هي كثيرة التعقيد بعاملٍ واحد ، مع أننا في تفسير حادثة مادية بسيطة نحتاج إلى أكثر من مبدأ وقانون .

١٦ - بعض التعابير والتعاريف الماركسية غامضة وغير دقيقة ، لذا تفسر بأكثر من تفسير[١] ، من ذلك « العامل الإقتصادي وقوى الإنتاج » فهي غير محددة ولا دقيقة ، لذا رأينا بعض الشُراح يفهمون العامل الإقتصادي مثلاً بأنه « الآلية أو صناعة الآلات » المستخدمة في الإنتاج ، بينما نرى آخرين يفهمون منه الشروط العامة للانتاج ، بما فيها الوسط الجغرافي والثروات الطبيعية وإستخراج

---

(١) المرجع السابق ص ٨٣ .

الثروة من الأرض وتحويلها ونقلها وتوزيعها فإذا قلنا بالمفهوم الأول (العامل الإقتصادي الرئيسي هو الآلية فقط) يكون معنى ذلك أننا نفسر كل الحوادث في التاريخ، وحالات المجتمع بجزء من الواقع الإجتماعي، الذي هو إختراع الآلات في حين أن الآليـة نفسها تقتضي كمية من التجارب والمعارف، ولا يمكن أن تكون سابقة لهذه الأشياء وإنما هي نتيجة لها.

أما إذا قبلنا بالمفهوم الثاني فيصبح العامل الإقتصادي مثل «جراب»، وضع فيه- بدون تمييز- الشروط الجغرافية والآلية والعلم والتجارة.. والتبادل والتوزيع والتشريع الحقوقي، والأنظمة السياسية، وأشياء أخرى وشيء معقدّ كهذا متعدد، لا يصلح تفسيراً للتاريخ والحياة، إنما هو محاولة عقيمة غير معقولةٍ، والعلم لا يقوم إلا على معين محدد معروف.

١٧ - تخلط الماركسية بين الجبرية والحرية خلطاً

لا مثيل له[1]، ففي الوقت الذي يقول ماركس بأن علاقات الإنتاج بين البشر مستقلة عن إرادتهم، وأن قوى الإنتاج تنمو وتتوسع من نفسها، مستقلة عن البشر فيكون العامل الإقتصادي قائداً للإنسان. وتُبني الماركسية على ذلك حلمها في الإنتصار وهزيمة الرأسمالية، وهي تعتبر ذلك الأمر «حتمياً» (فتظهر الجبرية واضحة)، بينما يقول العلم: إنه استناداً إلى مبدأ الإحتمالات، يكون ظهور أو إرتباط، أو أختفاء هذه الظواهر أو تلك محتملاً أو غير محتمل لا أكثر ولا أقل، والتقييد العلمي لا يعترف بألفاظ مثل «محتوم وضروري» وبالرغم من أن «كهان» الماركسية يصفونها» بالعلمية «فهي تقوم على ما يناقض العلم، فتقوم على تنبآتٍ غريبةٍ كالقول: بسير التاريخ نحو الإشتراكية» حتمياً «والقفز من الجبرية إلى الحرية في نهاية المطاف بمجرد الوصول إلى الإشتراكية، إذ يصبح الناس أحراراً، ويقف الصراع بينهم.

---

(١) المرجع السابق ص ٨٤.

١٨ - يقوم تفسير الماركسية للتاريخ على أنه سلسلة صراع طبقي من بعد الشيوعية الاولى، وحتى الشيوعية النهائية، وأن هذا أهم نزاع في المجتمعات والتاريخ يشهد أن هناك عدة أشكال للنزاع غير صراع الطبقات، فقد سجل تاريخ العالم نزاعات عرقية بين الإمم وما زال (بين البيض والسود) كما شهد وما يزال صراعات سياسية (كالحربين العالميتين) وأخيراً هذا الصراع المر بين الإخوة في الإشتراكية الصين وروسيا، وكمبوديا وفيتنام والصين. هذا علاوة على الحروب الدينية.

علماً بأن تعريف الماركسية «للطبقة» ما زال غامضاً مبهماً، فلا يعرف مثلاً في أية طبقة يصنف أصحاب الحِرَفْ والصناعات العلمية، والمهن الحرة، فهل هم من العمال أم من البرجوازية الصغيرة، أم من غيرها؟؟

رابعاً: التفسير الحضاري: توينبي

١ - يرى توينبي:[١] (أن المجتمعات الأعظم إتساعاً في الزمان والمكان من الدول القومية أو دول المدن المستقلة، أو أية جماعات سياسية أخرى، هي المجالات المعقولة للدراسات التاريخية.... المجتمعات لا الدول هي الوحدات الإجتماعية التي يجب أن يعني بها دارسو التاريخ).

٢ - يتأمل توينبي التاريخ الحضاري المعروف ويدرس ما إنطوى عليه من المجتمعات دراسة مقارنة، فيقرر وجود عدد محدد من الوحدات الإجتماعية التي تميزها خصائص معينة، وتصلح وحدها للدراسة التاريخية، وهو يفرق بين المجتمعات البدائية والحضارية، ولكن كلاً منها يصلح ميداناً للدراسة.

٣ - ان المجتمعات الحضارية عنده هي:

---

(١) التفسير الإسلامي ص ٧٠.

المصريـــة، السومريـــة، البابليـــة... الحيثيـــة، السريانية... والحضارة الغربية.

٤- يضيف لهذه المجموعات أخرى يرى أنها توقفت في مرحلة ما من نموها الحضاري ويعد منها: البدوية، والعثمانية وغيرها.

ثم يرى أن أغلب هذه الحضارات قد اندثر، ولم يبق سوى سبع أو ست منها الآن بدور الإنحلال، وهي تـدور في فلـك الحضـارة «الغربيـة» أما الحضارة الغربية فلا يعرف مصيرها.

نشوء الحضارات

يطرح توينبي سؤالا هاماً ثم يحاول الإجابة عليه فيقول: ما الذي أخرج الإنسان من جمود الدور البدائي الذي قبع فيه فتراتٍ طويلةٍ، وأطلقه في أجواء الـدور الحضـاري؟؟ وهـل يمكن اعتبـار العرقية، والمناخية بين الأجناس أو البيئات سبباً في نشوء الحضارات المعروفة؟؟.

يرفض توينبي النظرية العرقية، على ضوء نتائج الدراسات الحضارية المقارنة التي تثبت أن جميع الأجناس قد أسهمت في البناء الحضاري.

كذلك يرفض نظرية «البيئة الجغرافية» ويرى أنها لا يمكن الأخذ بها، إلا اذا قامت حضارات مستقلة في بيئات متماثلة جغرافياً، ففي العالم أحواض أنهار تشابه وديان النيل ودجلة والفرات جغرافياً، لكن لم تنشيء حضاراتٍ مستقلة مطلقاً.

ويخلص الى نتيجة هامة حيث يرى أن للمناخ والطبوغرافية القابلية المساعدة على قيام حضارة «بشرط توفر الحافز الأساسي الذي يبسطه في نظرية: «التحدي والإستجابة». فما هي نظريته في ذلك؟؟

نظرية التحدي والإستجابة

يقول توينبي:[١] (ليس السبب في نشوء

(١) المرجع السابق ص ٧٤.

الحضارات بسيطاً ولكنه متعدد وليس وحدةً مستقلة، ولكّنه علاقة مشتركة).

ثم يتحدث عن نظريته فيرى أنها تتجلى في التراث الديني، حيث تتعدد الشواهد على ما كان للتحديات من أثر فعّالٍ في شتى مناحي الإبداع والتكامل. ويستعرض قصة (آدم) عليه السلام وموقفه من إبليس، والسيد المسيح وتحديه للشيطان إلى غير ذلك، ليخلص إلى تقرير نظريته عن التحدي والإستجابة، مفسراً بها نشوء الحضارة، كما يستشهد لنظريته بجملة وقائع تاريخية، فيقول: إن الجماعات التي كانت في جنوب آسيا وشمال أفريقيا حين فاجأها الجفاف- وكان تحدياً كبيراً- حمل البعض على الهجرة إلى وادي النيل، ليقيم حضارته، بينما بقي البعض في حال بداوة تامة... وفي الصين في حوض النهر الأصفر كان الحافز على الكفاح غلبة القسوة، فقد بقي الصينيون قروناً يكافحون الأدغال والغابات، والوحوش والحشرات والفيضانات والجفاف، حتى استطاعوا في آخر

الأمر تحويل المنطقة الموحشة إلى حقول خصبة مثمرة، وأقاموا حضارتهم هناك.

ويستعرض توينبي نماذج عدة تتمثل في تحدي الإنسان للإنسان، وذلك حين تتحدى الفئة المسيطرة في مدنية منهارة الأكثرية الداخلية المنفصلة عنها بسبب الفشل، أو تتحدى جماعة تكون على حدود الوطن، والتي تكون متطلعة ومتحفزة لتقويض سيطرة الجماعة الأولى، وهكذا بالانتصار تنشأ حضارة جديدة ويعد من هذا النوع سائر الحضارات المتصلة، وكأن تنوينبي يجمل التحديات «بطبيعية وبشرية».

ويزيد نظريته توضيحاً فيقول:[١] يجب أن تكون التحديات غير سهلة، فلا تنقاد وتذلل بسهولةٍ، ولا صعبة بحيث يعجز الجهد البشري عن مغالبتها... ولكنها مما يثير أقصى الطاقة على الكفاح، وبفضل هذا الكفاح يستحق الظفر. ثم يعد الرخاء المفرط العدو اللدود للحضارات، ويستشهد

---

(١) المرجع السابق ص ٧٦.

على ذلك بالجماعات التي تعيش في المناطق الإستوائية، حيث الخيرات الوفيرة، فقد ظلت هذه الجماعات بدائية في حياتها، وبالمثل تكون القسوة العوائق في البيئة، قسوة خارقة شالة لكل نشاطٍ إنساني مدمرة لكل محاولة إنسانية للتحضر، كما هو الحال في المناطق القطبية (كالاسكيمو) أو المناطق الصحراوية.

بعد هذا يحدد خمسة دوافع تتصل بالبيئة المناسبة وتستثير الفاعلية وهي:
أ- دافع الأرض الصعبة. ب- دافع الأرض البكر. جـ- دافع النكبات. د- دافع الضغط. هـ- دافع العقوبات.

نمو الحضارات

كيف تنشأ الحضارات؟ وكيف تنمو وتتقدم؟ وهل يمكن أن تتوقف في مرحلةٍ معينة؟

ويجيب توينبي بأنه ليس من الضروري أن تنمو كل حضارة ناشئة حتى تصل إلى (القمة)، فقد

تتوقف في مرحلة ما، وذلك بسبب العجز عن مقابلة التحديات، سواءً أكانت طبيعية أم بشرية، ويعد من ذلك الحضارتين العثمانية والأسبارطية.

وهو يرى أنه لا يكفي التغلب على تحدٍ معينٍ، بل لا بد من القدرة على المواصلة[1]: (لا بد من تحقيق غاية إلى صراع جديد، ومن حل مشكلة إلى مجابهة أخرى، ومن هدأة مؤقتة إلى حركة راجعة، إن الحركة المحدودة من حالة التزعزع إلى حالة التوازن لا تكفي بذاتها لكي يتبع النمو النشوء...).

يتناول توينبي بعد هذا النظريات الشائعة التي تفسر النمو الحضاري، فيرى أنها تركز على (الكم لا الكيف) فهي تسجل الإنتصارات، ومنها العسكرية بينما يرى أن التوسع العسكري يقع أحياناً مع هبوط الحضارة. وكذا التقدم الصناعي والعلمي، فقد يصاحبان التقدم الحضاري أو يكونان بغيره.

---

(١) المرجع السابق ص ٧٧

قضايا النمو الحضاري

يستعرض توينبي جملة قضايا في مقياس النمو الحضاري وهي:

أ- التقدم في مجال نمو الذات: فيرى في دراسته لتطور العلوم والفنون اتجاها نحو التبسيط، وتيسير المتشابك، ففي الآلات مثلا حلت الآلات العاملة بالوقود مكان الأدوات البخارية، وفي النقل حلت الحافلات الحرة، (السيارات) محل القطارات، واللاسلكي محل التلغراف.

ويرى أن هذا يعبر عن دافع حيوي يعمل في ذات النفس الإنسانية، ليحررها من العوائق المادية.

ب- المجتمع والفرد: يحاول توينبي تخطئة نظريتين متعاكستين:

أولاهما: تقول بأن الفرد هو الحقيقة الموجودة المدركة، وأن المجتمع ليس سوى مجموع من الذرات البشرية.

والثانية ترى بأن الحقيقة هي المجتمع وأن الأفراد ليسوا سوى أجزائه ولا يمكن تصورهم غير خلايا فيه.

أما رأي توينبي فهو[1]: (أن المجتمع هو علاقةٍ بين أفراد، وهذه العلاقة تقوم على إتفاق مجالات أعمالهم اتفاقاً يجمعها على صعيد مشترك، هو ما نسميه بالمجتمع.)

وعلى هذا يكون المجتمع مجال عمل مشترك، بين عدد من الناس ولكن الافراد ينبوع العمل. والنمو الحضاري لا يكون إلا بواسطة المبدعين من الأفراد، وبواسطة الفئة القليلة من القادة الملهمين.

أما انقياد المجتمع فيكون بمعاناة الأكثرية للخبرات نفسها، أو بإتباع الأكثرية للأقلية ومحاكاتها.

جـ- الإعتكاف والعودة: تتصف أعمال الإنسان

---

(١) المرجع السابق ص ٧٩.

الرائدة بحركة مزدوجة، من الإعتكاف والعودة، الإعتكاف لتحقيق صفاء الذات وإستلهام الحق، واما العودة فمن أجل هداية الإتباع وتوجيههم، وأكثر ما يتضح ذلك في حياة الرسل، كما تتضح في حياة عدد من المجتمعات الصغرى (كإيطاليا قبل النهضة، وانكلترا في العصور الوسطى) ثم ساهمتا في نمو الحضارة الغربية.

د - التنوع داخل الوحدة خلال دور النمو الحضاري:

الحضارة النامية وحدة متماسكة وحركة منتظمة، ولكن تجارب الفئات المتعددة التي تنهض بهذه العملية ليست متماثلة (لعله ينظر للمجتمعات الغربية من جهة، ويغمز من دول اوروبا الشرقية من جهة ثانية) ويمثل لنظريته هذه بمثل الزارع يبذر الحب في الحقل، فلكل حبة كيان، ولها مصير، ولكن هذه الحبوب من نوع واحد، ويبذرها

زارع، بهدف الحصول على حصاد واحد....
وهذه حقيقة جديرة بالعناية فالناس في المجتمع ليسوا نسخة طبعت على آلة تصوير، وكذا الفئات، ولكن المفروض أنهم أبناء مجتمع واحد يتجهون لهدف واحد..

سقوط الحضارات

بعد الحديث عن نشوء الحضارات ونموها جاء دور سقوطها وإنحلالها، فيرى توينبي نتيجة لإستقرائه أن الحضارات تسقط وتنحل، فمن بين (٢٦) حضارة سقط (١٦) وأما العشرة الباقية فثلاثة منها في النزع الأخير، والسبع الباقية تهددها الحضارة الغربية بالإبادة والإمتصاص، وشيء منها تقوم الدلائل على سقوطها وانحدارها.

ويدحض توينبي النظريات التي ترد سقوط الحضارة الى أسباب حتمية، خارجة عن قدرة الإنسان فلا هي تشيخ، ولا يعيد التاريخ نفسه، ولا يسقطها العدوان الخارجي، بل يكشف سقوطها

فقط، وحتى النقص في العلوم والفنون يراه نتيجةً، وليس سبباً.

أسباب سقوط الحضارات

يجملها توينبي بثلاثة أسباب هي:

١ - ضعف القوة القائدة المبدعة، وتحولها إلى سلطة تعسفية.

٢ - تخلي الأكثرية عن موالاة الأقلية المسيطرة، والكف عن محاكاتها.

٣ - الإنشقاق وضياع الوحدة في كيان المجتمع.

تفسير توينبي للسقوط

يرى توينبي أن الفارق الأساسي بين مرحلتي النمو والسقوط الحضاري هو أن الأقلية المبدعة في مرحلة النمو، تكون عادة قادرة على القيام بالردود الناجحة المستمرة على التحديات المتجددة، ولكنها

في مرحلة السقوط تظهر عاجزة عن ذلك، ثم لا تلبث أن تنقلب إلى أقلية مسيطرة تحاول الحفاظ على مركزها بالقوة والتعسف، نتيجة لهذا يحصل إنفصال للأكثرية عن الأقلية، ويبدأ زمن الإضطرابات، فتقوم الفتن والحروب المحلية، داخل المجتمع الواحد، أو مع مجتمعاتٍ أخرى، فتكون هذه الحروب سبباً في الإنتحار، كما حدث ذلك بين دول المدن الاغريقية (وكما حدث للعرب في الأندلس).

ويرى توينبي أن زمن الإضطرابات هذا يشكل تحدياً، يدفع بالأقلية المسيطرة إلى قهره واستئصاله، فتعمد إلى «إيجاد الدولة الجامعة» محاولة لإسترداد السيطرة، ولكن هذه الدولة ليست سوى إستجابة عاجزة، لا تلبث أن تنهار.

ويمثل للدولة الجامعة بالإمبراطورية الرومانية، بالنسبة للحضارة الهلينية، والخلافة العباسية بالنسبة للحضارة الإسلامية.

• • •

إنحلال الحضارة وما يرافقه

يرى توينبي أن إنحلال الحضارات يرافقه « فساد » يدب في أرواح الناس، وتغير جذري يطرأ على سلوكهم ومشاعرهم، وحياتهم كلها، ويقوم مكان الصفات الجيدة الباهرة القوية والمبدعة، التي كانت في فترة نمو الحضارة، يقوم بدلاً عنها « ثنائية » من النزعات والمواقف العقيمة المتناقضة، كما يتعرى الفساد الروحي، وتظهر فوضوية تعم الأخلاق والعادات، وإنحطاط يسود الأدب والفنون، ومحاولات عقيمة للتوفيق بين المذاهب والديانات، كما تسعى الفئة المسيطرة في حالات معينة إلى فرض فلسفة خاصة، او مذهب معين بالقوة لكنها تخفق في محاولاتها. وهذا تشخيص جيد دقيق.

هذا موجز لنظريات توينبي في نشوء الحضارات ونموها وسقوطها، وقد وجه لها نقد، شأن الكثير من النظريات...

« النقد[1] »

يُعدُّ الإستاذ « بترم سوروكن[2] » أشهر ناقد لنظرية توينبي، وإن كان لا ينكر عليه فضله وما جاء به:

١ - يقول سوروكن: « إن توينبي لا يعني بالحضارة مجرد « مجال للدراسة التاريخية »، وإنما يعني نظاماً موحداً، أو كياناً كلياً مرتبطة أجزاؤه، بعضها ببعض، إرتباطاً سببياً، بحيث يستطيع التغير في جزء واحد تغييراً في الكل وبالعكس، وهكذا يفترض أن للحضارات كيانات حقيقية لا مجرد أكوام وتكتلات لعدد من الظواهر الإجتماعية، والثقافية، المختلفة ظواهر متجاورة في الزمان والمكان، من غير ترابط سببي موحد.

فلو صح إفتراض توينبي لحقيقة كيان

---

(١) سقوط الحضارة لكولن ولسن ص ١٤٦.

(٢) التفسير الإسلامي ص ٨٩.

الحضارات، إذن للزم التغير في أحد المقومات تغييراً في مجموعها في سياق مطرد....

والحق إن حضارات توينبي ليست كيانات حقيقية بدليل قوله: إن الظواهر الإقتصادية والتقنية كثيراً ما تتغير في الحضارة الواحدة مع بقاء الظواهر الإخرى ثابتة.

كما يذكر توينبي أن العنصر الديني أو الفني أو السياسي كثيراً ما يبدو مستقلاً عن غيره من العناصر في ذلك الكل الحضاري.

وهكذا يقوض توينبي أساس نظريته القائلة: بأن الحضارة وحدة حقيقية ملتحمة الأجزاء بعضها مع بعض، وأن ما يسميه توينبي «وحدة حضارية» ليس في الواقع إلا مجال ثقافي، توجد فيه عدة عناصر، من الأنظمة والتكتلات الإجتماعية والثقافية الكبيرة والصغيرة، وتكون منسجمة في جانبٍ منها ومتجاورة أو متباينة من جانبٍ آخر.

وهكذا فإن مبدأ «الأدوار الحضارية» في تفسير توينبي يصبح فاسداً، فما لم يكن في أصله

بنية حية، لا يمكن أن يولد وينمو ويموت.

وبناء على ذلك لا يصح إعتبار تفسير توينبي نظرية في التطور الحضاري، بقدر ما هي نظراتٍ تقويمية لأعراض التقدم والتأخر الحضاري.

يفرّع سوروكن على ما تقدم فيقول[1]:

أ- إن تقسيم توينبي الحضارات الى دنيا وعليا، ومجهضة ومتوقفة... يصبح اعتباطياً».

ب- تفاوت مدد الأدوار المختلفة التي مرت بها الحضارات يصبح هو الآخر تفاوتاً مصطنعاً، لا تقره حقيقة الظاهرات التاريخية، إذ لم يكشف لنا توينبي عن الحياة الحضارية، متى وكيف نشأت، وكان عليه أن يبحث ذلك قبل أن يدرس أعراض الموت والإنحلال. وهذا حق لا جدال فيه.

جـ- إن اعتبار دور النشوء، في الحضارة فترة سلام دائم لا يؤيده واقع التاريخ فالحضارة الغربية

---

(١) المرجع السابق ص ٩١

مثلاً كانت (بشهادة توينبي) تنعم قبل القرن الخامس عشر بدور النمو مع أن القرون (١٣ - ١٤) كانت من أخصب القرون بالفتن والقلاقل. (ولعله يقصد السلام داخل المجتمع). ومن جهة أخرى كانت أدوار الإنحلال في عدد من الحضارات، أعم بالسلام من أدوار النشوء والإزدهار..

د- ما يسنده توينبي إلى الحضارات من الخصائص الغالبة: مثل جمالية عند الإفريق، ودينية عند اليهود، يدحضه الواقع التاريخي، فأحوال الحضارة تتبدل، وَهي ليست وقفاً على حضارة بعينها.

هـ- ينقل توينبي جل شواهده من الدول القومية، مع أنه لا يعترف بها كوحدات للدراسة التاريخية، وكان يلزمه أن يأخذها من تاريخ الوحدات الإجتماعية ليوضّح وجودها، كوحدات مستقلة.

و- أخيراً يأخذ سوروكن على توينبي إطالته

للبحوث التي لا مبرر لها، وإنهماكه في تقرير مبـاديء سبق أن قررها غيره (كدور كايم وماركس)وغيرهما.

ومع كل هذا النقد اللاذع، فإن سوركن يعترف أن دراسة توينـبي هـذه هي من أعظم الآثـار الفكرية، في مجال البحث التاريخي لهذا الجيل.

مآخذ أخرى

أعلن توينبي أنه يتبع في بحثه المنهج التجريبي، ولكن النقاد اتهموه بسوء التطبيق في أبحاثه، فهو ينتخب من الظواهر ما يناسب «فرضه» ويعرض الشواهد بالطريقة التي تؤيد ما يريد، ويفسرها تفسيراً موالياً لنظريته، وهكذا فإن ما توصل إليه لا يمكن اعتبـاره من القوانـين العامـة، ولكنها نظرات في تفسير الأحداث، قد يكون بعضها صائباً أو لا يكون.

وختاماً فإنه لا ينكر أحد الجهد الكبير الذي قام به، والاستقراء الواسع الذي يشكل أساس

دراسته للحضارات الإنسانية في نموها وسقوطها، ومثل هذه الدراسة لا يمكن أن تنضج وتكتمل في يوم وليلة وعلى يد دارس واحد، بل شأنها كشأن الكثير من الدراسات، لا بد أن يتوافر عليها جهد الإنسان وتمحيصه يميز بين الجوهر والعرض، بين العلة وما نتج عنها.

الحضارات هي جهد الإنسانية في عمرها الطويل، فهل يحيط بها إنسان واحد في عمره القصير؟؟

إن كل ما نطمع به هو وضع الأصابع على أسباب التقدم والنهوض، وأسباب الكبوة والسقوط، حتى لا يكرر الإنسان أخطاء أخيه، فيتجرع علقم ما ذاقه الأجداد. نريد أن نتجنب العثرات ونتجاوز المتاعب، دون أن يسقط الأبناء في الحفر آلتي سبق أن سقط فيها الأجداد.

خامساً: الموقف الإسلامي من التاريخ

في جلسة كريمة من تلك التي تجمع بين الرسول

عليه الصلاة والسلام وصاحبه أبي بكر رضي الله عنه، راح أبو بكر يتفرس في وجه الرسول الكريم ثم قال:[1] (أراك قد شبت يا رسول الله؟ قال عليه السلام: شيبتني هود وأخواتها).

ومن يستعرض سورة هود يجدها تتحدث عن أمم قديمة عصت أوامر الله، ورفضت هداه فحل بها عذاب ماحق، جعل حضارتها خبراً بعد عين، وهذه الأمم هي:

١ - قوم نوح: وقد راح نوح يدعوهم إلى الله قرابة ألف عام، لكنهم استكبروا وأعلنوا احتقارهم للفقراء الضعفاء. (... وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادىء الرأي...) الآية ٢٧، وكان نصيبهم الغرق.

٢ - عاد: أرسل الله لهم هوداً لكنهم رفضوا الاستجابة له، وكانوا أصحاب قوة وجَلَد، كما كانت بلادهم وفيرة الخيرات، وبدلاً من الاستجابة لهدى

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٥٢٤.

الله راحوا يؤلفون العصابات، ويقطعون الطرق، ويعيشون في الأرض فساداً، فحقت عليهم لعنة الله في الدنيا والآخرة.

٣- قوم ثمود: وقد أرسل الله لهم صالحاً، وكانوا أصحاب شجرٍ وثمرٍ وجناتٍ، كما كانوا أصحاب زروعٍ وقصورٍ، وكان من بطرهم أن عقروا ناقة رسولهم ظلماً وعدواناً، فأخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

٤- قوم لوط: وقد أرسل الله لهم لوطاً لهدايتهم، ولكنهم كانوا قد غرقوا بالفسق والزنا، حتى لم يعد منكراً لديهم، بل كانوا يذكرونه ويتباهون فبه، وقد صار هدف الحياة عندهم، فأمطرهم الله بحجارة من سجيل مسومة قضت عليهم وعلى فسادهم.

٥- أهل مدين: وقد أرسل الله إليهم شعيباً، وكانت بلادهم تموج بالخيرات، وبدلاً من شكر النعمة راحوا يتلاعبون بالموازين، وحين راح شعيب ينبههم لذلك اتهموه بالجهل، وراحوا

يسخرون منه ، ثم هددوه بالطرد والرجم ، فجاءتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، فكان مصيرهم كمصير ثمود .

٦- فرعون وقومه: وقد جاءهم موسى بالبينات ، ولكن فرعون راح يشمخ ويصرخ أنا ربكم الأعلى . ثم كانت النتيجة الغرق في البحر كما هو معروف. واذا أردنا صفة جامعة لهذه الحضارات وأصحابها ، أمكننا القول بأنه العصيان ، ورفض هداية السماء ، مع البطر وشيوع الفساد .

يقول الدكتور فاروق حمادة:[١] (إن الأمم السابقة قد ابتليت بواحدة أو أكثر من هذه المعاني ، فبعضها جحد هداية السماء ، واستعلى على الرسل والأنبياء ، وبعضها أضاف إلى هذا الإعتداد بالقوة والركون إليها ، وبعضها إختلت أنظمتها الإجتماعية وفسدت فيها النفوس ، وبرزت نوازع الشر ، وسيطر حب المال ، وبعضها أعمتها الفاحشة ،

---

(١) الإسلام والحضارة.الندوة العالمية للشباب الإسلامي٢/٥٣٤.

وأختلت فيها علاقة الرجل بالمرأة خاصةً، وعلاقة الإنسان بالإنسان عامةً، فهذه الأمم في مظاهر الإنحراف والفساد- آلتي كانت سبب الدمار والزوال- متشابهة تمام التشابه، ولهذا أسماها الله عز وجل «ظالمة»).

التداول

يقرر الإسلام مبدأ «تداول» الحضارة بين الناس (وتلك الأيام نداولها بين الناس) آل عمران ١٤٠.

يقول ابن خلدون رحمه الله في مقدمته المشهورة[١] (إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة، ومنهاج مستقر، إنما هو إختلاف على الأيام والأزمنة، والإنتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق

---

(١) المسألة الإجتماعية ص ١١٥.

والأقطار والأزمنة، سنة الله آلتي قد خلت في عباده). أ هـ.

فالزمان ليس ملكاً لأحد، حتى ولو كان مسلماً، وبإمكان الكل أن ينتظر دوره في الحضارة، وفرصته في الصعود حين يكون مستحقاً لذلك عن جدارة، ولو كان كافراً بالله، ويشبه بعض الباحثين ذلك بالناعورة فيقول:[1] (تكاد الحياة الدنيا تبدو من خلال التصور الإسلامي، أشبه بالناعورة والشجاع هو الذي يحصل على «صعدة» أكثر في تاريخ هذه الحياة آلتي تدور فيها المواقف ولا تستكين لأحد).

وعلى الإنسان والأُمَّةِ أن يعيشوا «بأمل الصعود» حتى وإن وصلوا إلى أسفل نقطة، إذ لا أحد يصد جهدهم ولا «حتمية» تقف في طريقهم، كما بإمكانهم تولي القيادة مرة وثانية وثالثة، بشرط أن يكونوا أهلاً لذلك. فالصعود ليس أبدياً وكذا السقوط.

---

(١) التفسير الإسلامي ص ٢٥٦.

وقد عرض القرآن شرطاً لذلك وهو «التغيير الداخلي» والغريب أن يتحقق في الصعود والسقوط: (ذلك أن الله لم يكِ مغيراً نعمةً أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) الأنفال ٥٣.

ويبدو مبدأ التغيير الداخلي وكأنه يقف في مقابل «حتمية السقوط» آلتي ينادي بها كثيرٍ من المفكرين.

سقوط الحضارة

متى تسقط الحضارة؟ يمكن تلمس ذلك في الجانب السياسي والإقتصادي والإجتماعي.

١ - في الجانب السياسي: تحين ساعة السقوط عندما يتسلم السلطة حفنة من المترفين والإداريين الظلمة، أو المجرمين الطغاة، فيمارسون الطغيان، ويستغلون نفوذهم، وحرصاً منهم على سلطانهم، فهم يرفضون كل دعوة جديدة، مخافة أن تسلبهم إمتيازاتهم. يقابل هذا رضوخ واستسلام أمتهم، وسكوت مطبق إزاء كل الجرائم الشائعة يقول

الرسول عليه السلام (إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منها).

وفي حديث آخر (سيكون أمراء تعرفون منهم وتنكرون، فمن كره برىء، ومن أنكر سلم، ولكن من رضى وتابع). بينما يحدد الإسلام المنهج السليم للحكم، فيجعل مهمة الحكام الهداية للحق والتمسك به، والحكم بموجبه، مع البعد عن التجبر، وإشاعة الفساد.

ولما كان الجهاز الإداري يتأثر كلياً بقيادته، لذا فإنه يفسد بفسادها ويصلح بصلاحها، وهو يتابع قيادته السياسية ويحاكيها في سيرتها، ومن هنا يأتي الترابط الشديد بينهما.

٢ - في الجانب الإقتصادي: تتفكك الحضارة وتبدأ بالسقوط حين تنقسم الأمة إلى فئة قليلة مترفة، وكثرة فقيرة معدمة، وحين يصبح المال والثروة حكراً على قلة تتداول بين الأغنياء، بينما يتضور الكثرة من الجوع والفاقة، وهناك معادلة خبيثة معروفة، حيث يقود الترف إلى السلطة، أو

تقود السلطة صاحبها إلى الترف.

فهنا يختل العدل ويحق الدمار (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) الإسراء ١٦.

([١]) إن الترف ممارسة مدمرة، سواءً للجماعة كلها التي تسكت على ذلك وتغض الطرف، او تغلو في انهزاميتها، فتتملق وتتقرب وتداهن أو المترفين الذين يعمى الثراء الفاحش بصائرهم، ويطمس على أرواحهم، ويسحق كل أساس أخلاقي أصيل في نفوسهم ويحجب عنهم- وهذا هو الأخطر- كل رؤية حقيقية لدور الإنسان في الدنيا، وموقفه من الكون...).

إن القرآن يستهجن بشدة كنز المال، وعدم دفع حصة الفقراء منه، وهو يطالب الأغنياء دوماً بالعطاء، ويحثهم على البذل. بقي أمر آخر نبه إليه الإسلام وهو تهرب الأغنياء من العقاب، وقصره

---

(١) التفسير الإسلامي ص ٢٧٢

على الفقراء فمتى وصلت حضارة إلى ذلك إندفع الناس في الموبقات والجرائم وتسابقوا في ذلك، حتى تنهار الحضارة، وفي ذلك يقول الرسول عليه السلام (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد...).

٣- الموقف من الظالم[1]: لم يحفظ تاريخ العالم إسم دولة كانت ظالمة ثم دامت وعمرت، فالظلم أشبه بالألغام توضع في المجتمع، لا تلبث أن تنفجر يوماً ما. لذا فقد دعا الإسلام إلى رفض كل صور الظلم، مع غض النظر عن مصدره، كما دعا إلى عدم مشاهدة وقعه ونزوله على الناس المظلومين، لأن ذلك يؤثر على وجدان المشاهد فيألفه. ومتى عم الظلم وانتشر، وجبت الهجرة، ليس هروباً ولكن إستنكاراً وإبتعاداً (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٠٧.

فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان... النساء ٩٧ . وينبه القرآن إلى أمرٍ هام، وهو أن الفساد لا يقتصر أثره وشره على المفسدين بل يطول غيرهم، حتى من الصالحين، لأنهم لم يتحركوا ، ولم يفعلوا شيئاً لوقف الفساد (واتقوا فتنة لا تصيب الذين ظلموا منكم خاصةً...) الأنفال ٢٤ .

٤- الفساد الإجتماعي: ويتمثل في الخراب وفساد العلاقات بين الناس والسقوط الأخلاقي ، والجري وراء الشهوات والملذات الحسية، وحب الذات والأنانية ، ومعلوم أن كل حضارة تسقط يسبقها عادة سقوط أخلاقي: يقول غوستاف لوبون :[١] (ونحن إذا ما بحثنا في الأسباب آلتي أدت بالتتابع إلى إنهيار الأمم، وهي التي حفظ لنا التاريخ خبرها كالفرس والرومان وغيرهم، وجدنا أن العامل الأساسي في سقوطها هو تغير مزاجها النفسي تغيراً نشأ عن إنحطاط أخلاقها ، ولست أرى

---

(١) الإسلام والحضارة ٥٣٥/ ٠٢.

أمة واحدة زالت بفعل إنحطاط ذكائها، ووجه الإنحلال واحد في جميع الحضارات الغابرة، وهو من التشابه ما يسأل به مع أحد الشعراء عن كون التاريخ صفحة واحدة، وإن اشتمل على عدة مجلدات).

ومن الفساد الإجتماعي فقدان التوازن بين متطلبات الإنسان الروحية والجسدية فإن ذلك يؤدي عادة إلى التفكك والإنحلال. وهذا ما يعرض الجماعة والحضارة إلى نكسبة قاسية، لذا نجد الإسلام يقر بالمطالب الأساسية للجسد ويوائم بينها، فأقر للجسم بالأكل والشرب من الطيبات، بشرط عدم السرف كما أقر اتخاذ الزينة، بل أمر بها في المساجد. أما دعوته لإشباع الحاجات الروحية فأكثر من أن تحصى. يقول أحد الكُتَّاب[1]: (أن القرآن الكريم يرسم خطاً جديداً في تصويره للعلاقة بين الإنسان والعالم، خطاً يقوم على الوئام، والإنسجام، والتكامل، والوفاق والتجانس، والإلتحام بين

---

(١) التفسير الإسلامي ص ٣٠٢.

الروح والمادة، بين العقل والقلب، بين الأرض والسماء، بين الجبرية والقدرية، بين الفعل والتأمل، بين الغريزة والوجدان... فما دام الإنسان مزيجاً معقداً فَذّاً بين الروح والجسد، فإن تلاؤم وتوافق هذين الجانبين هو الوضع الطبيعي الذي يتمكن الإنسان من بذل الحد الأقصى لطاقاته وقدراته، وبالتالي تسير العجلة الحضارية بسرعة أكبر وانجاز أبدع...).

٥- تمزق الأمة وانهيار وحدتها:

كثير من الأمم والحضارات التي سقطت، سبق سقوطها تمزق في الأمة من الداخل، وفقدان لوحدتها، ولعل أقرب مثل للأذهان ما أصاب المسلمين في الأندلس حين فقدوا وحدتهم، فضاعت دولتهم، وقام بدلاً عنها دويلاتٍ صغيرة، راحت تستعين بالعدو لمحاربة الأخ. والله تعالى يحذر من هذا فيقول (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شِيعَاً لَسْتَ مِنهُمْ في شيء) الأنعام ١٥٩. ويقول: (ولا

تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) الأنفال ٤٦.
فوحدة الأمة هدف يتمسك به الفرد وتلتزمه الدولة، وهو دعامة لبقاء الحضارة ونجاة الأمة، ومتى ضاع فهيهات أن يسترد، أو يعوض عنه بشيء آخر.

كيفية سقوط الحضارات

يحدثنا القرآن الكريم عن قوتين يسخرهما الله تعالى لاسقاط الحضارات.

أولاهما: قوة الطبيعة المنظورة، والثانية قوة الروح غير المنظورة.

ومن النوع الأول: السيول، العواصف، الجفاف، الفيضان، الزلزال،.. الصواعق، الأمراض الفتاكة، الحروب والصراعات الداخلية، الجوع ونقص الغذاء والماء إلى غير ذلك. ويذكر القرآن أن هذا الأسلوب لم يكن مفيداً ولا مجدياً مع الأمم السابقة، والأجدر ألا يجدي مع الأمم اللاحقة.

والقرآن لا يحدد صيغة معينة «للسقوط» فكل أمة تستنفذ جميع مبررات بقائها، ثم تنحى جانباً بسبب أو جملة أسباب، وفي ذلك يقول الله تعالى (قل هو القادرُ على أن يَبْعَثَ عليكم عذاباً من فَوْقِكُمْ، أو من تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أو يلْبسَكُمْ شيَعاً ويُذيقَ بَعْضَكُمْ بْأسَ بَعْض...) الأنعام ٦٥.

وهذا السقوط يزيح الأُمة مِنْ مَرْكَزِهَا القيادي، ويدفع بها إلى الوراء، لتحل مكانها جماعة أو أمة تكون أجدر بالقيادة، وأكثر انسجاماً مع النواميس (وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم) محمد ٣٨. وعلى ذلك لا تذهب أمة ظالمة مثلاً، لتأتي أخرى أظلم، ولا تذهب أمة متكاسلة لتأتي أكسل.

والملاحظ أن هذا التغيير لا يكون فجائياً، لأن الإنحراف لا يقع في يوم أو ساعة، بل يبدأ صغيراً ثم يكبر مع الأيام، وهكذا فإن سقوط الأمة وحضارتها لا يكون بضربة قاضية ولا مفاجئة، وما حصل من ذلك قديماً هو تتويج وتكريس للسقوط.

إن الله وضع في الكون نواميس، فمن أحسن التعامل معها، وفهمها فهماً سليماً استحق التقدم والرقي، ومن تجاهلها وصد عنها أو حاربها إستحق السقوط والإرتكاس، دون محاباة ولا مجاملة لأحد.

والقيادة كما هي في الأفراد، لا تكون إلا لمن يستحقها بجدارة، فكذلك في الأمم، والله تعالى لا يحابي مسلماً لمجرد إسلامه، ولا يعادي كافراً ويقف ضده لمجرد كفره، إنما هي نواميسه وسننه في الكون، من أخذ بها وفهمها فاز وتقدم، ومن أعرض عنها وتجاهلها خاب وتأخر.

وعلينا اليوم أن نقلب النظر في تاريخ أمتنا لنعرف كيف تقدمت، وماذا لزمها للحصول على (القيادة) وماذا ارتكبت من أخطاء حتى فقدت مكانتها، وتنازلت عن قيادتها، أو أكرهت على ذلك. علينا أن نبحث بجد وإخلاص، بعيداً عن العواطف، والتغني بالأمجاد، لنحدد مكاننا ومكانتنا في هذا العالم وموقفنا فيه ومنه.

علينا أن نبحث بعمق في أسباب تقدم الأمم

الأُخرى، وسر تأخرنا، وأخيراً علينا أن نؤمن بأن الأيام «دول» ومن سقط فبإمكانه النهوض إن أراد ذلك، ومن كان في القمة فإنه ساقط لا محالة، متى إنحرف وحاد، ولو تأله وتفرعن، كما علينا أن نبدأ عملية التغيير من الداخل، كما أرشدنا القرآن، وإلا فإن تغيير المظاهر لن يُجْدِيَ فتيلاً، إن تقليد الأمم في المظاهر، كان زادنا مدة تزيد على نصف قرن، فما زادنا إلا تأخرا، وفرقة.

وختاماً لنقرأ بإمعان قول الله (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) الاعراف ١٢٨.

المراجع

١ - الإسلام والحضارة ودور الشباب المسلم. أبحاث ووقائع اللقاء الرابع لمنظمة الندوة العالمية للشباب الإسلامي. الطبعة الاولى ١٤٠١هـ.

٢ - اقتصادنا: الشيخ محمد باقر الصدر. دار الكتاب اللبناني.

٣ - تفسير التاريخ: عبدالحميد صديقي: ترجمة الجوادي. الدار الكويتية.

٤ - التفسير الإسلامي للتاريخ. الدكتور عماد الدين خليل أوفسيت الميناء.

٥ - سقوط الحضارة: كولن ولسن: ترجمة أنيس زكي. منشورات دار الأداب.

٦ - العدالة الإجتماعية: فؤاد العادل. دار الكتاب العربي.

٧ - فلسفتنا: الشيخ محمد باقر الصدر. دار التعارف.

٨ - المسألة الإجتماعية: الشيخ عمر عودة الخطيب مؤسسة الرسالة.

٩ - مقدمة ابن خلدون: الطبعة الثالثة.

١٠- مقال في العدل الإجتماعي: الدكتور عماد الدين خليل: الطبعة الثانية.

١١- نقض أوهام المادية الجدلية دكتور سعيد رمضان البوطي دار الفكر.

الفهرس

المقدمة ٣
أضواء على تفسير التاريخ ٥

أولاً

التفسير الديني ٨

ثانياً

التفسير المثالي لهيفل ١٤
النقد ١٩

ثالثاً

التفسير الماركسي ٢٥
النقد ٢٩

رابعاً

التفسير الحضاري. توينبي ٥٠
نشوء الحضارات ٥١
نظرية التحدي والاستجابة ٥٢
نمو الحضارات ٥٥

قضايا النمو الحضاري ٥٧
سقوط الحضارات ٦٠
أسباب سقوط الحضارات ٦١
تفسير توينبي للسقوط ٦١
انحلال الحضارة وما يرافقه ٦٣
النقد ٦٤
مآخذ أخرى ٦٨

خامساً

الموقف الإسلامي من التاريخ ٦٩
التداول ٧٣
سقوط الحضارة ٧٥
تمزق الأمة وانهيار وحدتها ٨١
كيفية سقوط الحضارات ٨٢
المراجع ٨٦
الفهرس ٨٧